نـافـذة

ذو الوزارتين والحب

ابن زيدون أو أحمد بن زيدون، شاعر الأندلس الباقي، وشاعر الحب المميز الذي يردد شعره الزمان، شعر مؤثر سهل يصل إلى كل إنسان، ونثر متفوق للغاية من رسائل نثرية، لكنها لم ترق إلى مستوى شعره العظيم، مع أنها حوت الكثير من القضايا والهموم.

ابن زيدون من القلة في الحياة العربية التي حملت لقب ذي الوزارتين، فقد كان وزيراً وسفيراً، و لدى أكثر من دولة في الأندلس، والتناحر السياسي والحياتي بينه وبين خصومه أدخله السجن، وبقي ابن عبدوس طليقاً، وابن زيدون يستعطف سيده من السجن أن يعفو عنه ويصفح، يكتب ويتذلل من أجل العفو والخروج من السجن، ودارسو الأدب وقفوا عند كم التذلل في هذه الرسائل، وحاولوا قراءة ما توجه به إلى خصومه من نقد وتعريض، ولكن هذه الرسائل التي صاغها بحرقته ولوعته وتذلله من السجن لم تصل المستوى الفني الراقي الذي وصله شعره الرقيق، فما السبب في ذلك؟ من الواضح أن وزارتيه وسفارته أسهمت جميعاً في هذا النوع من التذلل وطلب الغفران، وذلك من أجل المنصب والجاه والوزارة ورضا السيد الذي غضب عليه لوشاية، ومهما تكن الأسباب في العلاقات السياسية فإنها تبقى مصلحية وفردية، مكسبها للشخص لا يشارك به الآخرين، وثمنها من ذل وتذلل وعزل وسجن وما شابه يقع على الشخص نفسه، فالفائدة له، والعقوبة له، وهو في الحالين لا يشارك الآخرين في منفعة، ولا يشاركه الآخرون في نكباته، وإن سخط عليه أحدهم، أو تعاطف معه آخر في محنته، فإن الأمور تبقى آنية، وباختصار شديد فإن هذا الواقع لا يقدم أدباً خالداً، فما جاء من اعتذاريات في أدبنا، وما جاء من روميات في أدبنا يبقى حالة فردية ومن أجل دوافع شخصية تعني النابغة من قبل وأبا فراس تالياً، وتعني ابن زيدون في رسائله، وبقي من النابغة ما يشارك به الناس من ألم، وبقي من أبي فراس إحساسه بأمه وهو يخاطبها (أيا أم الأسير سقاك غيث) ولم يؤثر وجدانياً في مناجياته لسيف الدولة، وفي كل الأمثلة نجد أن الأديب عندما يكون واقعاً تحت تأثير السلطة وشهوة السلطة يدفع الثمن، ويخسر التعاطف، ويبحث عن أمور لا يمكن أن تجد مسوغاً، وبعد أن يتمرغ الإنسان بكل أنواع الذل يكتشف صدق قول الزمخشري (السلطان نار إن اقتربت منه أحرقتك ناره، وإن ابتعدت عنه شاقتك ناره) يعرف هذا هذه المقولة، ولكنه يتجاهله ليكون جزءاً من السلطان، وعندما يصبح في مهب الريح يعود للحديث عن المظلومية، وقليلون هم الذين يدخلون ويحفظون قول الزمخشري ويعملون به !

لو لم يكن ابن زيدون محباً فماذا بقي منه؟

وماذا فعل الحب به؟

وماذا يقدم الحب للمحب؟

تذلل النابغة للنعمان.. وبقي حديثه لأميمة

وتذلل أبو فراس لسيف الدولة وبقي في احتضان روح أمه

أما ذو الوزارتين ابن زيدون فلم يبق له من تذلله لابن جهور إلا وضاعة الشخص من أجل السلطة.

أما من أبقاه فهو الحب..

أبقته ولادة بنت المستكفي التي تدعوه لزيارتها أو لانتظار زيارتها:

(ترقب إذا جُنَّ الظلام زيارتي)

أحبها وأحبته، فارقته لأنه فضح أمرها، تذلل وحاول الاعتذار قال له: (ود الصبر محب ودعك)

ويعتذر ويوضح إساءته:

(ذائع من سره ما استودعك)

وحين تذلل لولادة كان محط إعجاب يختلف عن تذلله لابن جهور، فالتذلل للمحب والمحبوب أعلى درجات السمو:

(إني ذكرتك بالزهراء مشتاقاً..)

ويتابع استجداءه:

(بنتم وبنا فما ابتلت جوانحنا)

وبقي ابن زيدون يتذلل لولادة، ويحاول استجداء لحظة الحب عندها لعلها تعود إليه وإلى حبه:

(أضحى التنائي بديلاً من تدانينا)

لم تعد ولادة لابن زيدون، ولم يتوقف ابن زيدون عن بثها حبه وشكواه محاولاً إحياء الحب..

عاش ابن زيدون إلى يومنا بحبه لولادة، الحب المغمس بالتذلل والاستجداء، وفي كل صورة من صوره كان سامياً عالي القيمة ووجد تعاطفاً وصل إلينا، وقد قرأناه ولم نعش زمنه، بينما لا تعنينا كل رسائل التعطف التي قالها لابن جهور، فتلك له.

أما حبه فهو لنا أكثر من كونه حالة خاصة، الحب وحده هو الذي يتحول من حالة خاصة إلى حالة عامة، الحب وحده هو الذي يجعل أحدنا يحاكم الشاعر بعد ألف سنة، أو يتعاطف معه، الحب وحده هو الذي يجعلنا نقول: لو فعل كذا! لماذا فعل كذا؟

وزارتا ابن زيدون ذهبتا بكل ما جمع وسجن..

خدمته للسلطان- مهما تلونت- انتهت

وبقي لنا ابن زيدون المحب العاشق الذي يدخل في وجداننا، وندخل في حروفه وصوره، وصورة ولادة التي تطمح المرأة أن تكونها وهي تقول:

أنا والله أصلح للمعالي

وأمشي مشيتي وأتيه تيها

وأمكن عاشقي من صحن خدي

وأعطي قبلتي من يشتهيها

كم الصورة جميلة، وكم يبلغ الأدب عندما يكون عن الحب والرجل والمرأة، وحالة وجدانية لا حالة نفعية سياسية، وحده الحب أبقى ابن زيدون.

نسمع عن وزارتيه، ولكن صورته الباقية أبداً في صدقه وتقلبه عن نار الشوق من أجل حب أضاعه.. وربما كان لوزارتيه وسفارته الدور في خسارته للحياة الأبقى في رحم الحب المتجدد أبداً.

من منا يذكر (تمام المنون) و(سرح العيون) هزلية أو جدية؟!

ومن منا ينسى (بنتم وبنّا)؟

الدارسون وحدهم من يحلل تلك الرسائل التي تبقى وثائق عصر، ولكنها ليست خلود شاعر وعبقرية، بالحب كانت عبقرية ابن زيدون، وبالحب وولادة وصل إلينا شاعراً لا يجارى إنسانية وحباً وولهاً.

ولنا أن نوازن بين وزارتيه وحبه.

إسماعيل مروة

السينما السورية.. مشوار الميل يبدأ بخطوة

«دمشق حلب» يتخطى الحدود وينال إعجاب اللبنانيين

وائل العدس

من دمشق إلى لبنان، خاضت أسرة فيلم «دمشق حلب» رحلة طويلة وسط أحوال جوية ثلجية صعبة لتكون حاضرة في العرض الأول في بيروت، وتحديداً في صالة سينما سيتي إحدى أهم وأفخم الصالات هناك وسط حضور فني وإعلامي كبير.

ويعد عرض الشريط خارج سورية خطوة مهمة نحو الانتشار الأوسع للسينما السورية، وخاصة أن أعمال المؤسسة العامة للسينما لم يسبق لها أن تخطت الحدود كما فعلها «دمشق حلب» الآن والذي يبدو بقعة ضوء ناصعة في تاريخ السينما السورية على اعتبار أنه مشغول بحرفية عالية نصاً وتمثيلاً وإخراجاً، ليكون بذلك أول فيلم سوري من إنتاج المؤسسة العامة للسينما يعرض في عروض خاصة بعيداً عن المهرجانات.

هذا العرض في لبنان، يعد خطوة في طريق الألف ميل، نحو وصول السينما السورية إلى نطاقها الأوسع، وخاصة بعد التطور السريع التي بدأ يطرأ عليها، والجوائز الكثيرة التي باتت تحصدها في المهرجانات العربية والدولية.

الافتتاح في لبنان حضره مدير المؤسسة العامة للسينما مراد شاهين، ومخرج الفيلم باسل الخطيب، وبعض نجومه وهم النجم الكبير دريد لحام والنجمتين صباح الجزائري وكندا حنا.

الذهب العتيق

حضور صاحب شخصية «غوار الطوشة» في العرض الافتتاحي أحدث ضجة كبيرة في الأوسط اللبنانية، حيث شهد هذا العرض زحفاً جماهيرياً كبيراً لضرب عصفورين بحجر واحد، الأول لقاء الكبير دريد لحام صاحب التاريخ الفني الكبير، والثاني حضور الفيلم الذي سبقته سمعته إلى بيروت بعدما حصل على جائزة أفضل فيلم في مهرجان الاسكندرية الرابع والثلاثين. وأثنى كل من حضر العرض على أداء لحام الذين يبدو كالذهب العتيق الذي يزداد لمعاناً كلما تقدم في العمر، إضافة إلى الإشادة بالفيلم الذي يدل بشكل أو بآخر على النهضة التي تقوم بها السينما السورية بسنواتها الأخيرة.

> مراد شاهين: السينما السورية جديرة بأن تحضر في المحافل العربية والعالمية

صدى إيجابي

ووفقاً لتقرير نشرته صفحة المؤسسة العامة للسينما على الفيسبوك، فإن مراد شاهين أكد ضرورة الفكرة والعمل عليها لما يحققه ذلك من وجود للسينما السورية في أحسن حالاتها في محيطها العربي، مشيراً إلى أن السينما السورية جديرة بأن تحضر في المحافل العربية والعالمية بشكل أفضل.

وعبر الفنان دريد لحام عن سعادته بعرض فيلم سوري في بيروت وعن رغبته في استمرار هذه التجربة بشكل أكثر فعالية، كما ذهبت في الاتجاه ذاته الفنانة صباح جزائري التي أكدت أن الفن السوري واللبناني يجب أن يتلاقيا دائماً لأن كليهما مكمل للآخر.

كند حنا عبرت عن سعادتها بأن الفيلم انطلق إلى الساحة العربية وكانت مرحبة بهذا العرض وعبرت عن أمانيها بأن ينطلق الفيلم لعواصم عربية أخرى.

أما مخرج الفيلم الفنان باسل الخطيب فقد أكد أن هذا الإنجاز هو خطوة مهمة ومتقدمة في سبيل تقديم السينما السورية بشكلها المهم في المحيط العربي لما تحمله من مواهب سينمائية مهمة، أهمها أيقونة السينما السورية كما سماها الفنان دريد لحام.

ومن الضيوف الحاضرين كان الممثل اللبناني الذي عبّر عن سعادته باستقبال فيلم سوري في بيروت، واعتزازه بأن الجو السينمائي في لبنان سوف يحتضن الفن السوري في أحلى تألقاته.

الناقد الفني اللبناني الشهير جمال فياض، عبر عن تقديره وإعجابه الشديدين بالفيلم ورغبته في أن يرى مزيداً من الأفلام السورية الناجحة على شاكلة فيلم «دمشق – حلب» لما يحمله الفن السوري من ألق وتراث حضاري كبير.

أما الفنانة فلة الجزائرية التي سبقتها دموعها في التعبير عن رأيها الشفهي بالفيلم، فتحدثت عنه بإسهاب وحيت توجهه نحو العمق الإنساني ومعالجته العميقة للآلام التي تعرض لها شخوصه.

عن الفيلم

الفيلم من تأليف تليد الخطيب وتمثيل دريد لحام وسلمى المصري وصباح الجزائري وكندا حنا وعبد المنعم عمايري وشكران مرتجى ونظلي الرواس وبسام لطفي وربى الحلبي وبلال مارتيني وناصر وردياني وعلاء قاسم ونادين قدور ونيرمين شوقي وعاصم حواط وفاروق الجمعات ووفاء العبد الله وأحمد رافع ولؤي شانا ونور رافع ورشا رستم ومهران نعمو وطارق عبدو وأسامة عكام وحسن دوبا ومجد حنا وسلمى سليمان وسالم بولس ووائل شريفي.

الفيلم الذي ينتمي لنمط الكوميديا السوداء يروي حكاية رحلة افتراضية في حافلة لنقل الركاب، بين دمشق وحلب تجتمع فيها ثلة من الناس المختلفي التوجهات والأعمار والأهواء، بحيث تشكل صيغة ما عن المجتمع السوري، بما يحمله من تنوع وتعدد في طيف بنيته الاجتماعية.

«عيسى» المذيع السابق يسافر إلى حلب لزيارة ابنته، وفي الحافلة يتضافر جزء من مصيره مع مصائر من وجدهم هناك، وآخرون كانوا على تماس مع هذه الرحلة، بأسلوب لا يخلو من الكوميديا، ويسير الفيلم في مجراه كاشفاً إيجابيات وسلبيات تعتري بعض تصرفات هؤلاء.

ركاب الحافلة يمثلون الانتماء للشعب السوري الواحد المحب للحياة رغم كل الظروف الصعبة التي يعيشها لتنتصر في النهاية إرادة الحياة والمحبة على كل ما زرع من ألغام لنسف هذه الحياة والمحبة.

هذا الفيلم الذي يعد التعاون الأول بين المؤسسة وبين القدير دريد لحام أعاد بنا الذاكرة إلى زمن السينما الجميل، أثبت فيه صاحب شخصية «غوار الطوشة» أنه كالذهب العتيق وقدوة حسنة لكل الممثلين في سورية والوطن العربي بالأداء المرهف والراقي والحساس، وما عززه اشتغال المخرج الخطيب دائماً ما يشتغل على أدق التفاصيل التي تشد المشاهد وتسحره.

الشريط مشوّق ومميز في بنائه الفني وعمق وإنسانية فكرته، وفيه الكثير من التعبير البصري الذي يحمل شحنة عاطفية عالية، ويرصد حالات اجتماعية وقضايا مبدئية وأخلاقية تعبر عن حالة المواطن السوري بشكلٍ عام، وعن طرق تعايشه مع هذه الأوضاع، مستخدماً بذلك أسلوباً كوميدياً نابعاً من رحم المعاناة وتراجيدية الحياة التي تصل في بعض المواقف إلى حد الكوميديا.

ويمثل الشريط نوعاً من الأفلام الأكثر تعبيريةً والأصعب تنفيذاً، لأنه محكوم بجدية الموقف وقوة الأداء وعقلانيته، الذي ينبع منه حس الكوميديا المعبر عن الحالة بشكل متكامل، وهو نوع من أصعب أنواع الفنون، لما يتميز به من خصوصية الحالة والموقف.

كما يحتوي على عدد من الأفكار المهمة التي تحاكي الوضع الراهن في سورية من خلال التناقضات الاجتماعية والمعيشية المختلفة، حيث كان مختلفاً عن الأعمال التي تحاكي الأزمة بشكل مباشر، وسلّط الضوء على هذه النواحي بأسلوب كوميدي في زمن وضع المواطنين فيه بمواجهة تحديات مصيرية توثر في حياتهم اليومية.

المكتبات المنزلية ثروةٌ ثقافية

نبيل تللو

حضرت منذ فترة احتفالاً أقامته مكتبة الأسد الوطنية بدمشق لتكريم أصحاب المكتبات المنزلية أو ورثتهم، الذين أهدوا في أوقات سابقة مكتباتهم الخاصة لحفظها فيها وإعارتها للقراء والباحثين، وحسناً ما قامت به، فهو جزءٌ من ردِّ الجميل لهؤلاء الذين قاموا بعملٍ نبيل بتقديمهم كتبهم تطوعاً وتبرعاً كي يستفيد منها الآخرون، إضافة إلى أنَّها نصبت لوحةً تذكارية بأسمائهم في بهوها الرئيسي، وخصصت فهرساً خاصاً لكتبهم، وقد جاء الاحتفال ضمن النشاطات الثقافية التي أقامتها وزارة الثقافة بمناسبة يوم الثقافة السورية ٢٠١٨/١١/٢٣. في هذه المقالة سوف أستعرض كيفية نشوء المكتبات المنزلية، ومآلاتها المحتملة، علماً أنَّ كلَّ من أمضى حياته ساعياً خلف كتابٍ قديمٍ أو حديث، أو جارياً وراء مجلة مضى تاريخ صدورها أو نُشرت حالياً، يعرف تماماً ما سوف أكتبه في هذه المقالة. ذلك أنَّ المطابع تطرح يومياً عشرات الكتب والمجلات، وصدور كتابٍ أو مجلة جديدة إنما يعني أنَّ رافداً معرفياً إضافياً قد انضم إلى المكتبة الثقافية، وأنَّ هرم العلوم الإنسانية قد ارتفع ولا حدود لارتفاعه، ولا بُدَّ من ضمِّه إلى مكتبة المنزل الخاصة مهما ارتفع ثمنه، فضمُّ كتابٍ إليها هو أمرٌ عزيز حتى وإن لم يتوافر الوقت الكافي لمطالعته من الغلاف إلى الغلاف، وبمرور الأيام والسنوات تأخذ المكتبة بالتزايد حتى تمتلئ الخزانة المخصصة لها، لتبدأ مرحلةٌ جديدة من تكوين المكتبة تتمثَّل بالبحث عن خزانة ثانية وثالثة، وتأمين مكانٍ لائق لها في البيت الذي غالباً ما يضيق بساكنيه، الذين يبدؤون بالتذمر والشكوى، لا سيما منهم سيدة البيت، التي تشكو همها لسيد البيت مع يقينها بأنها لن تجني أيَّ فائدة تُذكر، فهو الخصم والحكم في هذه القضية، ولا مجال لقبول الوسطاء، وحجته الدامغة تتلخص فيما يلي:

- كيف تريدون منعنا من تطبيق أول كلمة قرآنية «اقرأ»، فهذا أمرٌ إلهي وليس خياراً، ولا يمكن تحقيقها إلا بالسعي وراء المزيد من الكتب، فإن لم تعد الخزائن تكفي لحفظها، تُنقل إلى السقيفة أو إلى غرفة القبو إن توافرتا.

- إنَّ الكتاب هو الحاوي للعلم والمعرفة، فكيف تريدوننا أن نمتنع عن اكتساب المزيد منهما.

- إنَّ المكتبة تخلق جواً ثقافياً لأفراد المنزل، وتعمل على غرس حبِّ القراءة فيهم.

- إنَّ الدولة تشجع عبر مؤسساتها المختلفة، ولا سيما وزارة الثقافة، على القراءة واقتناء الكتب من خلال إقامة معارض الكتب على مدار العام بحسومات مغرية، فكيف لنا أن نقاوم هذا التوجهَ الحكومي الهادف لنشر العلم والمعرفة ورقي المجتمع، فأمةٌ تقرأ أمةٌ ترقى.

- إنَّ من حقِّ المبدعين شعراء ورواة وكتّاباً ومؤلفين على باقي أطياف المجتمع أن يقرؤوا نتاجاتهم الفكرية، فكيف لنا ألا نشجعهم باقتناء كتبهم ولو غصَّت بهم رفوف المكتبات المنزلية؟ ألا ينتفع من هذا الكتاب دور النشر؟ أليس تعاون أفراد المجتمع واجباً على الجميع؟ ألا تحرك صناعة الكتاب عجلة الاقتصاد التي تسعى الحكومة لتنشيطها؟.

- أليس البيت الذي فيه مكتبة هو منزلٌ مثالي يفخر به المجتمع ويمثِّل رمزاً لتقدم الأمة ورقي المجتمع؟.

وبعد عمرٍ مديد حافل بالجدِّ والنشاط، يموت صاحب المكتبة الذي لم يقتنع يوماً بمواصلة القراءة عن طريق الحواضن الرقمية، لتبدأ «الشمعة – المكتبة» بالانطفاء والتلاشي مع أنَّها قد أنارت العقول لسنوات، ونشرت الأفكار النيِّرة لعقود، ولا سيما مكتبة ذلك الأب الذي عجز عن نقل محبة الكتب والمطالعة لذريته من بعده مع سعيه الحثيث نحو بلوغ ذلك الهدف، والذرية تمتد للأحفاد، ذلك أنَّ نمط الحياة قد تغيَّر ولم يعد فيه حيزٌ للقراءة ولو ضئيلاً، فقد صار هناك وسائل أخرى أحدث للحصول على المعلومة، وأول ما يفكر به الورثة هو التخلص من المكتبة ـ التي تراكمت كتبها على مدى سنوات طويلة ـ للحصول على مساحة إضافية في المنزل، أو بيع البيت مع مكتبته دون حاجاته الأخرى وتوزيع الثمن على الورثة، هذا مع أنَّ هذا البيت قد وُلِدَ فيه جميع الأولاد، وجدرانه عابقة بمئات الذكريات التي لا تُمحى، فإن لم يرض الشاري باستلام المكتبة مع البيت ولو دون ثمن، فإنهم يبادرون للاتصال مع إحدى المكتبات العامة لقبول المكتبة بكلِّ محتوياتها هديةً، بذريعة نيل الأجر والثواب للمرحوم صاحب المكتبة، مصداقاً لقول الرسول الكريم: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقةٌ جارية، أو علمٌ ينتفع به، أو ولدٌ صالحٌ يدعو له»، ووضع الكتب في مكتبة عامة هو من الصدقة الجارية والعلم الذي ينتفع به، أو عرضها على أصحاب مكتبات الرصيف المنتشرة في كلِّ الأماكن بيعاً بثمنٍ بخس، لا بل في بعض الأحيان: «شيل ببلاش» مع دفع أجرة الشاحنة، فلا بدَّ من تسليم البيت للمالك الجديد فارغاً في موعد نهائي لا تراجع عنه.

نعم، إنَّ الظروف المحيطة بالورثة مثل تزايد عددهم، يتطلَّب استغلال المزيد من المساحات، كما أنَّ ضغط الظروف المعيشية عليهم يفرض قواعد جديدة، ويبسط أسساً لم تكن بالحسبان، ولعلَّ بيع المكتبة لمكتبات الرصيف بثمنٍ بخس أو مجاني هو من حظ أولئك الذين عشقوا الكتاب ولكنهم لا يستطيعون دفع ثمنه الباهظ، فيستطيعون اقتناءه بثمنٍ متدنٍّ لمضي سنوات على صدوره، كما أنَّه من الفأل السعيد لأولئك الذين يبحثون عن كتابٍ معيَّن في المكتبات ولكنهم لا يجدونه لمضي سنوات على صدوره، فيجدون ضالتهم في مكتبات الرصيف.

وكما نعلم، فإنَّ كثيراً من الدول قد وفَّرت مساحات واسعة للمكتبات الخاصة في أنحاء البلاد حاضرها وريفها، وهذا ما نراه في بلدنا الحبيب سورية حيث انتشرت المراكز الثقافية في كلِّ أنحاء القطر، ولكننا نطالب بالمزيد منها لاستيعاب المزيد من المكتبات الخاصة، كما أنَّ المجتمع الأهلي وبعض المبادرات المجتمعية غير الربحية يوفِّر إمكانات للاستفادة من الكتب المستعملة وتوزيعها على من هم بأمسِّ الحاجة إليها سواءٌ داخل المدن أو في المناطق النائية، بل حتى في بلدانٍ أخرى.

ولكنَّ الأفضل في هذه العملية - برأيي المتواضع - هو أن يحدد أصحاب المكتبات الخاصة وهم على قيد الحياة، المكان التالي الذي ستؤول إليه مكتباتهم الخاصة في حال لم يتلمسوا اهتماماً بها من ولدٍ أو حفيد.